الفصل الأول

قيام عيسى بالدعوة

(ا) الأصول اليهودية للمسيحية – عيسى الناصرى : نقص المعلومات عنه – كيف ولماذا حلت أسطورته محل تاريخه – أصول الأناجيل – كيف وضعت هذه الأناجيل – كيف استطاع الإيمان أن يتكفل بمواضع النقص فيها – كيف نبحث مشكلة قيام عيسى بالدعوة .

(ب) البيئة التى خرج منها عيسى – البلد اليهودى والبلدان المجاورة : مادة دينية ضخمة متوافرة أمام الاتجاهات التأليفية المجددة – التربية اليهودية الكاملة لعيسى – العالم الفلسطينى فى عهد هيرودوس الأكبر – « القسس » والعبادة – « الكتبة » والتشريعات الدينية – الشعب والدين الحىّ – ترقب المسيح خصائص اليهودية فى إقليم الجليل .

(جـ) أساس قيام عيسى بالدعوة : الأمل فى ظهور المسيح – علاقة عيسى بالمعمدان – موضوع أحاديثه : ظهور مملكة الله والتوبة – هل ظن أنه هو المسيح ؟ – معنى ومدى الأسماء التى تطلقها عليه الأناجيل : ابن الله ، ابن داود ، ابن الإنسان – عقبات مختلفة ومسائل تبدو صحيحة : عيسى النبى اليهودى .

(١)

المسيحية إذن تنبع أساساً من حركة يهودية . وهى تبدو أولا – وعلى وجه التخصيص كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود ، وتتميز بها البيئة الفلسطينية – ولا يمكن تصور قيامها خارج نطاق العالم اليهودى . وقد بدأ بهذه الحركة – التى تعددت آثارها فيما بعد فأبانت عن خصوبتها – عيسى الناصرى . ولا تعنى كلمة الناصرى فى غالب الظن « رجل الناصرة » ولكن « الناظر » أى : « قديس الله » .

ولا أعتقد أنه يمكن التشكيك فى وجوده على غرار ما يحاوله البعض حتى أيامنا هذه . ولكننا متى ما أثبتنا وجوده التاريخى ، فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة فى تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك . ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذى دار فى السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصيلة ، لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسىفى شىء من اليقين والتثبت . ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التى تدعى سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية . ونستطيع إدراك السبب فى هذا الغموض من تخيل أحاسيس هؤلاء الرجال الذين استمعوا إلى دعوة عيسى وآمنوا بها ، ثم هالهم وأيأسهم تعذيبه وصلبه ، وأعلنوا بعد ذلك بعثه . هؤلاء لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عنه . إنهم لم يفكروا فى أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتى . فالعالم – عالم الظلم والخطايا ولذّات الجسد – كان فى عقيدتهم وشيك النهاية . وكانوا يترقبون بين لحظة

وأخرى توقف الحياة البشرية وظهور المسيح المنتصر فى السماء .

ومن ناحية أخرى كان لابد أن ينعكس إيمانهم القوى على ذكرياتهم فيؤثر فى صورها :

كانوا على يقين من أن عيسى الناصرى هو المسيح الذى وُعدت به إسرائيل ، وأنه يجلس إلى جانب الرب فى السماء ، مرتقباً الساعة . ودفعهم هذا اليقين إلى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعة ، ونجاح دعوته المحدودة ، وطريقة تعذيبه الوضيعة . ودفعهم كذلك إلى أن يستخرجوا التعاليم والتنبؤات من أقل الحوادث والأحاديث شأناً ، وأن يطبقوا على أستاذهم كل نصوص التوراة التى قيل إنها تتعلق برسول يهوه المبارك الموعود ، فيجدوا فى حياته مصداق ما أنبأت به هذه النصوص ، وهكذا كان خيالهم ، بدافع التقوى ، يزين الأحداث ويصبغها فى إطار من التعليقات والإضافات التى يفرضها إيمانهم – بطريقة ما – وكأنها من لوازم سيرة عيسى ، وكأنها حقيقة لا شك فيها ، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبى المنتظر . واسترسلوا فى سذاجتهم وبساطة مشاعرهم ، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات الحقيقية . ولقد خلطوا بينهما فى تلك التعاليم التى نشروها من حولهم . وأصبح أتباعهم لا يستطيعون التمييز – حتى لو أرادوا – بين واقع الأحداث وما أضفاه عليها الإيمان من صور شتى . وكان تحمسهم للعقيدة لا يدع لهم مجالا لمقاومة ما توحى به الرؤى والتهيؤات الفردية (فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالاً خياليًّا مباشراً بالروح القدس يؤخذ قضية مسلمة وفرضاً ضروريًّا على الجميع ، يؤمنون به إيماناً لا يعلو عليه – بل لا يدانيه – إيمانهم بالواقع المباشر الذى يمليه التاريخ) .

فتلك التعاليم مثلا التى قال القديس بولس إن عيسى أوحى بها إليه روحيًا ، كانت تبدو له أكثر ثقة ويقيناً من كل ما كان يحكيه له صاحبا المسيح ، بطرس ويعقوب .

وإذن فمنذ الجيل المسيحى الأول تكونت التقاليد التى أيقن المؤمنون بأنها التاريخ الصحيح لأستاذهم ، تكونت من عناصر متباينة تختلف درجات الحقيقة فيها كثيراً . ولم تظهر بذور الشك فى قرب العودة المأمولة للمسيح إلا عندما انتهى أجل هذا الجيل الأول من المؤمنين ، وبانتهائه لم يعد هناك شهود « مباشرون » لحياة المسيح . ثم رأى الحريصون من المسيحيين أنه قد يكون من المصلحة أن يثبتوا بالتدوين تلك الذكريات التى افترضوا صحتها فى الأخبار المتوارثة شفاهاً .

وغالب الظن أنه قد ألفت فى هذه الفترة كتيبات سجل فيها محرروها ما رأوه جديراً بالعناية من مجموعات حكم منسوبة إلى أستاذهم ، أو حكايات عن مراحل حياته وجدوا فيها عبرة وتمييزاً لشخصيته ، أو وصفاً لـ « آياته » ، أى لتلك المعجزات التى قام بها فى سبيل إقناع الجهلاء . . ولم يعنَ أحد بما نسميه اليوم بـ « التحقيق التاريخى » ، ذلك المنهج الذى يفترض الشك ، والذى يتنافى مع دوافع الإيمان المطلق لدى هؤلاء الكتاب الذين افتقروا كل الافتقار إلى روح النقد ، موجهين الاهتمام ، قدر استطاعتهم ، إلى اثبات صحة الآمال المسيحية وإقناع المترددين ووعظ المؤمنين .

وكانت هذه الكتيبات – وأهمها مجموعة الأحاديث المنسوبة إلى متّى والروايات المنسوبة إلى مرقس – المصادر الأولى لأناجيلنا ، إلا أنها لم تكن لتضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كما تصورها المسيحيون عندما أوشك

جيل أصحابه أن ينقرض وقد حاول المحررون المتابعون لتلك الأناجيل ، خلال الثلث الأخير من القرن الأول المسيحى أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئاً من الانسجام . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها ، فضلا عن شبه استحالة تحقيق الواقع وتخليصه من الإضافات الخيالية التى كانت فى طيات الروايات المتوارثة . ولقد كان من العسير التمييز بين الأحداث التاريخية وبين تلك التى فرض الإيمان وقوعها من أجل أن « تكتمل كلمة الكتاب » أى بين الذكريات الحقيقية الحية وبين وحى الروح . ولم يكن هناك إلى جانب ذلك دافع يدفعهم إلى الجد فى طلب هذا التحقيق وهذا التمييز .

لقد وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها : فمجموعات الحكم لم تكن تلتزم فى دقة دقيقة بالظروف والأحداث التى أنطقت المسيح بها . واختلف سردها — الذى لم يقم على أى أساس طبيعى — من كتيب إلى آخر ، وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة نفسها . فهى لا تحكى سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح لارابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف الرواة . فكان على محررى الأناجيل أن يغربلوا ثم يختاروا ، ثم ينسقوا ، سيرة متكاملة من هذه المتناثرات المشوشة .

وتصفح الأناجيل وحده يكفى لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى « تركيبات » واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه . ولاشك أيضاً فى أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح ، فلم يكن

عملهم إذن سوى أن يربطوا – فى كثير أو قليل من المهارة – بين أطراف من المرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة فى إطار مصطنع . وإننا لنلحظ فى ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصاً كثيراً وفجوات خطيرة نلحظها حتى فى إنجيل مرقس الذى يلغ به الحرص أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته .

ولكن الإيمان لا يرضيه التجاهل ، بل إنه يتوصل دائماً إلى معرفة ما هو بحاجة إلى معرفته ، وخيال الأتقياء يخدمه دائماً . لذلك نرى الإنجيل الأول ، ثم الإنجيلين الثالث والرابع ، يحاول كل على طريقته أن يسد هذا النقص ويملأ تلك الفجوات ، فيروى لنا – فيما يتعلق بالفترة التى تجاهلها الانجيل الثانى – حوادث قد تختلف وقد تتعارض . ولكنها تتشابه جميعاً فى تعلقها بالمعجزات ورغبتها فى الوعظ والإرشاد ومن الواضح أنه لا يربط أيًّا منها بالواقع التاريخى علاقة تذكر .

ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصَّلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها فى ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل ، وأنها تأثرت فى مخيلتهم بالأساطير المختلفة الشائعة فى الشرق ثم إنها فسرت تفسيرات غُيرت وجُدّدت فى جوانب كثيرة أساسية منها . وكيف – من ناحية أخرى – لا ينسبون إلى إرادة الأستاذ الأول وإلى تعاليمه وسنته كل الأفكار الخصبة التى تمخضت عنها دفعة الإيمان الحى لدى أتباعه وقد اضطروا اضطراراً ، بسبب موته ثم بعثه ، إلى أن ينظروا إلى الماضى والمستقبل من خلال صورة المنقذ المنتظر كيف – مثلا – لا يجعلونه الداعى الأول إلى طقوس التعميد وإلى عقيدة تحول الخبز والخمر المقدسين إلى لحم ودم المسيح ؟ كيف لا يكون هذا بعد أن أصبح التعميد – منذ

جيل الدعاة الأول – خاتماً للإيمان ، وأصبحت عقيدة التحول هى الصلة المباشرة بين الإخوة فى الدين وبينهم وبين المسيح ، حسب تفسيرات القديس بولس ؟

وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز فى وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته فى دقة .

وخلاصة القول فيما يتعلق بشخصيته أنه يمكن التكهن ببعض ملامحها من خلال الروايات الإنجيلية ؛ أما سيرته فليس لنا سوى الأمل فى التعرف على شىء من مراحلها . والأمر فى كلتا الحالتين لا يختلف عما قلناه فيما يختص بكل ما نسب إلى عيسى من تعاليم : يجدر بنا عند بحثها ألا نؤكد شيئاً منها إلا فى حرص شديد .

بيد أننا نعلم أن عيسى هذا ترك عائلته فى يوم من الأيام وخرج إلى إقليم الجليل مبشراً وواعظاً . فلماذا ؟ . . . هل سلك هذا المسلك لأنه شعر بحاجة نفسه إليه ، ودفعته عاطفة لا تقبل مقاومة . . . عاطفة نشأت بالفطرة بين جوانحه ولا نستطيع لها تفسيراً ؟ . . . لا شك أنه كان للدافع النفسى أثره فى هذا السلوك ، وإن كنا لا نستطيع تصوره إلا على أنه نتيجة عوامل وظروف بيئة معينة . .

ومسألة قيام عيسى بالدعوة تعود بنا إذن –تاريخيًّا– إلى تفهم البيئة التى خرج منها .

(ب)

لسنا اليوم على معرفة تامة بتلك البيئة التى نشأ فيها عيسى ، ولكننا خطونا بعض الخطوات فى سبيل معرفتها ، ونلمح لها وجهين مختلفين بل هى تبدو مزدوجة فى تركيبها :

فالمسيح قد ولد يهوديًا ، ثم نشأ فى بيئة يهودية استعار منها وحدها – حسب ما نعلم – عناصر ثقافته الفكرية والدينية .

بيد أن أمة إسرائيل لم تكن قد وصلت من الانعزال عن العالم الخارجى إلى ما تستطيع به أن تتجنب تماماً تأثيرات الشعوب السريانية والكلدانية التى عاشت بجوارها . كما أنها تأثرت ولا شك بصلاتها المستمرة بالفاتحين الإغريق ، سواء منهم من جاء من ملك البطالسة بمصر ، أو من إمارات السلوقيين بالشام يضاف إلى هذا تأثير وفود الحجيج المتفاوتة العدد إلى القدس – فى المواسم والأعياد – من أبناء الجالية اليونانية التى هاجرت إلى بلاد اليونان واستقرت بها .

كل ذلك أدّى إلى تشرب بنى إسرائيل بالكثير من الأفكار الخارجية ، خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحى .

ومن ناحية أخرى نجد – حول العالم اليهودى الفلسطينى – بيئة ثانية مشركة وهذه البيئة إن لم تؤثر مباشرة على عيسى فإنها جذبت إليها أتباعه عقب موته : تلك هى البيئة السورية والفينيقية التى كانت تحد فلسطين فى الشمال والغرب والجنوب الغربى ، والتى لا ترتسم معالمها اليوم بوضوح فى أذهاننا ، وإن كانت آنئذ مصبًّا لروافد كثير من التيارات الفكرية والعقائدية وللخرافات والأساطير

أو آثار ديانات القرون الماضية إلى جانب الديانات المعاصرة . وتلك هى أيضاً بيئة ما بين النهرين فى الشرق ، تتفاعل فيها التيارات الدينية النابعة من الهند وفارس والمنتهية إلى أرض بابل ، الأرض التى تعدّ مصدراً للكثير من الأساطير القديمة ، المنتشرة بين كل الشعوب السامية وللنظريات التى يمتزج فيها علما الفلك وما وراء الطبيعة لتفسير سير الكون والخليقة . ثم كانت هناك البيئة المصرية من ناحية الجنوب ، حيث تطورت العبادات المحلية ونمت ونحت نحو آفاق أوسع وأشمل بتأثير الفكر اليونانى الخصب . وأخيراً نجد البيئة الإغريقية من ناحية الشمال ، فى الإقليم الذى نسميه اليوم بآسيا الصغرى نجدها أكثر تعقيداً واختلاطاً فى الفكر ، ولكنها أيضاً أكثر خصوبة وإثماراً بسبب وضعها كمركز هام للديانات . فإلى جانب العبادات القومية – وكان بعضها ما يزال حيًّا قوى التأثير – وأساطير الديانة الأوليمبية ، وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم – وقد انتهى بها الأمر إلى التبسيط حتى تكون فى متناول عامة الناس – إلى جانب كل هذا ، نجد فى تلك البيئة مؤثرات من سائر البيئات الأخرى التى ذكرناها ، بما فيها البيئة اليهودية .

كانت هناك إذن مادة دينية ضخمة ، خاملة فى بعض نواحيها ، وإن كانت عناصرها قد بدأت تتداخل وتنتظم فى تركيبات مختلفة ترمى إلى تأليف المذاهب وتبلغ فى ذلك درجات متفاوتة من الإغراب . كانت هناك مادة دينية ضخمة قابلة لأن تتشكل وتتطور فى سهولة حسب رغبات من يريد استغلالها ، فكانت بالتالى مصدراً يكاد لا يفنى لمستقبل المسيحية ولكننا نكرر هنا أن المسيح نفسه – حسب ما تؤكده سائر الدلائل – نشأ وتكون فى بيئة يهودية بحتة . وإنه لمن ضروب التخمين الذى لا يقوم على أساس ملموس أن يقال بتأثير مباشر للبوذية

على عيسى . ولقد انتشرت المسيحية أول ما انتشرت خارج فلسطين ، على أيدى اليهود أنفسهم ، فلنلق نظرة ، بادئ ذى بدء ، على العالم اليهودى ولسوف نتطرق فيما بعد إلى محاولة تحليل الجوانب الدينية للبيئات الأخرى عند حديثنا عن انتشار الدعوة المسيحية فيها .

ومن الجدير بالذكر : أن البيئة اليهودية فى عصر هيرودوس الأكبر (المتوفى عام ٤ قبل الميلاد) كانت غاية فى التعقيد ، ظاهرها وحدة الجنس والعادات والتقاليد والدين ، وباطنها فرقة أصيلة فى صفوف أهل فلسطين الذين انقسموا شعبين يختلفان اختلافاً كبيراً فى الاتجاهات الفكرية والنزعات الدينية .

والعلّة الأولى لهذا الانقسام ترجع إلى عهد بعيد : إنها ترجع إلى العهد الذى رأى فيه ملك بابل أن يُهَجِّر نحو ضفاف الفرات طوائف من اليهود الذين انهزموا أمام جنده . ولكنه فى تنفيذ خطته هذه ، لم يهتم إلا بالعائلات المعروفة التى كان لها قدر من السطوة ، أما أهل الريف وعامة الشعب فقد ظلوا فى ديارهم يمارسون دين إسرائيل القديم ، بتقوى أكيدة وإخلاص لـ « يهوه » ، ولكن مع شىء من التحرر الذى لا يرفض التعامل والاتفاق مع الآلهة المجاورين أو مع المؤمنين بهم . وكان هؤلاء الفلاحون الفلسطينيون البسطاء يؤمنون بأن اليهودية دين رجال ، فلا يتهربون من الزيجات المختلطة التى تجلب إلى عروق الشعب المختار دماء جديدة من بنات الشعوب الأخرى . أما أهل المهجر – إذا استثنينا منهم تلك الفئة التى دفعها اليأس إلى عبادة أصنام المتنصرين – فقد تطوروا فى سرعة سريعة : وجدوا أنفسهم مضطرين اضطراراً إلى إعمال الفكر فى صلتهم بـ « يهوه » ، وفى العهد القائم بينه وبين شعبه ، وفى أسباب محنتهم . ثم راحوا يتخيلون لأنفسهم سبيلا إلى مستقبل أفضل ووسيلة للخلاص من مثل تلك

الكوارث التى حلت بهم . واعتقدوا أن المحن التى مرت بها إسرائيل كان سببها عدم الوفاء بالعهد ، وأن الطريق إلى إرضاء الإله هو الخضوع فى عبادته لحرفية النصوص والتمسك بالشعائر المفروضة فى غير ما لين أو تحرر ، أى فى الواقع : اتباع شعائر غاية فى الدقة والحرص ، تمنع تسرب أدنى نزعة إلى الوثنية . ويعود الفضل فى تثبيت هذه الشعائر ، وفى تدعيم الاتجاه نحو شرع محدد — وقد قنن فى صورة سايرت الرغبات الجديدة — إلى أنبياء المهجر ، وعلى الأخص منهم إزكيال . فلما سمح قورش للمنفيين بالعودة إلى أوطانهم (عام ٥٣٨) ، لم يغتنم الجميع تلك الفرصة ولكن العائدين منهم إلى فلسطين جلبوا معهم الشرع الجديد والروح الجديدة ثم إنهم فضلا عن ذلك ، ظلوا على اتصال وثيق بإخوانهم الذين استقروا بمملكة بابل ، والذين أيدوهم بأموالهم ودعايتهم ونفوذهم فى بلاط ملك الفرس ، حتى يفرضوا أنفسهم على أهل فلسطين ممن لم يعرفوا المنفى . وكان الرجال الذين أصلحوا المعبد والعبادات — وعلى الأخص منهم إسدراس ونحيميا — من اليهود الوافدين من مملكة بابل ، وكانوا يرفضون رفضاً قاطعاً الزيجات المختلطة ، ولا يقبلون أى تنازل تجاه الديانات الخارجية . وكانوا « كتبة » أى رجالا تخصصوا فى دراسة الشرع وتفسيره ، فراحوا ينشئون إلى جانبه مجموعة وافية من الشروح الشرعية للإفتاء فى المسائل الدينية التى لم يكن لها بدّ من التكاثر بعد أن فرضت الطهارة المطلقة شرطاً أساسيًّا للتقوى .

وإذن ففى الفترة التى تمتد من عودة يهود المهجر حتى مولد عيسى ، نرى أولا طبقة كبيرة من رجال الدين — طبقة إكليروس — تنشأ من جديد حول المعبد الأعظم ، وتعمل على انتظام العبادة فيه ، ولكنها لا تختص بدراسة أو تعليم الشرع ، بل تتجه بطبيعتها إلى الطقوس والنصوص فحسب ؛ ثم نرى ثانياً نمو

طبقة أخرى هى طبقة « الكتبة » ، أى فقهاء الشرع ، يتنافس أعضاؤها على تحليل أوجه الكتاب المقدس المختلفة ، يكثرون عليها بالشروح والتعليقات وينتهون فى كثير من الأحيان – برغم تقواهم الشخصية المخلصة العميقة – إلى إغراق إيمان الروح الحرة الفطرية تحت ركام المسائل الشكلية ، فيجادل بعضهم مثلا فيما إذا كانت البيضة التى تضعها الدجاجة فى يوم سبت تعدّ بيضة طاهرة أو فيما إذا كان الماء الذى يسكب فى إناء مدنس يعتبر مدنساً حتى منبعه . .

ولا نشك فى أن بعض هؤلاء الفقهاء تأثروا – دون أن يشعروا – بالنظريات اليونانية فى الإله والكون والإنسان فراحوا يتسامون ويبالغون فى التصوير القديم لـ « يهوه » ، ويوسعون من مفهومه بحيث أصبح هو : الإله بالذات ، الإله الذى لا يحدّ والذى لا يكاد الإنسان يجد له اسماً ، كما نزعوا إلى تبنى مذهب كونى ومذهب إنسانى يتميزان بالثنائية ، حيث تتعارض فيهما الروح والمادة ، أو النفس والجسد ومن هنا بدأت الديانة القومية لبنى إسرائيل تتخذ صبغة عالمية وإنسانية ، على عكس ما خطه لها التشدّد الدينى فيما سبق من اتجاهات . وإن هذه الصبغة لتظهر سريعاً وفى عمق بين الجاليات اليهودية بالمهجر – وسوف نعود إلى الحديث عن ذلك – ولكنها فى أول عهد المسيحية ، كانت أيضاً قد انتشرت وأثمرت فى فلسطين منذ سنوات كثيرة .

كان الشعب إذن يطيع رجال الدين ، لأنهم مرشدوه القوميون : فالحبر الأكبر هو وحده المنوط به تمثيل إسرائيل أمام الأسياد من فرس أو إغريق ، وأصبحت فلسطين بذلك دولة يستمد حكامها ولايتهم من الله ، وظلت على ذلك فى عهد المكابيين الذى ظن فيه اليهود أنهم حققوا استقلالهم . ففى ذلك العهد كان الحاكم ملكاً وقسًّا أكبر فى آن واحد .

ومن ناحية أخرى نرى هذا الشعب يبدى إعجابا بالكتبة ، هؤلاء العلماء المدققين .

والواقع أن الطقوس التى كان يتمسك بها رجال الدين فى غير ما اقتناع ، والعلم المتصنع المترفع لدى الكتبة ، لم يؤثر أى منهما تأثيراً ذا شأن فى روح الشعب ، ولم يروظمأه إلى التقوى ، بل نرى هذا الشعب يسير بالتدريج فى السبل التى يخطها له التشدّد الدينى ، فيقاوم المؤثرات الخارجية قدر ما يستطيع وقد يبدى غضبه لميل القادة بشكل ملحوظ إلى الأخذ بأطراف التيارات الثقافية اليونانية . إلا أنه باق على حبه لـ « يهوه » قلباً وروحاً ، يصلى له فى أيام الشدة بحرارة تنبع من تقوى العهود القديمة ، لا تحدها الأشكال الجديدة للعبادات ، أى أن دينه – بعبارة أخرى – كان يحيا وينمو ، بل إنه كان يرتبط بعقائد غير يهودية الأصل أتت إليه من الشرق ، مثل تلك المتعلقة بدور الملائكة والشياطين ، أو بالحياة الأخرى ويوم القيامة ، وفى الوقت نفسه كان يستقى من المحن التى مر بها اليهود فى هذا العصر – فقد عانوا كثيراً من ظلم المصريين والسوريين والرومان ، ومن ظلم أنفسهم ، خلال القرون الأربع التى سبقت مولد عيسى – كان يستقى من هذه المحن تأييداً لأمل قديم : أنه يترقب ويأمل بكل جوارحه مجىء المسيح الموعود الذى سوف تسترجع به أمة إسرائيل ما عرفته من مجد أيام داود ، بل أكثر منه .

وانتهى الكتبة أنفسهم إلى تقبل هذه الاتجاهات فى العقيدة الشعبية وإلى شرحها والتعليق عليها ، وبالتالى إلى اعتمادها وتأمينها . وكلما أتت الأحداث بما يخالف الأمل المنشود ، وازداد عنف الطغيان الأجنبى ، كلما قوى هذا الأمل فى صدور السذج والبسطاء واحتلّ مكاناً أكبر من عقيدتهم الدينية .

ويجب ألاّ يغيب عن بالنا أن اليهود – مثلهم مثل غيرهم من شعوب العالم فى هذا العصر – لم يكونوا على علم بشىء مما نسميه اليوم بـ « القوانين الطبيعية » ، أى الترابط المحدد اللازم بين العلة والمعلول . وكانوا يؤمنون بأن الإله قادر على كل شىء فلا يفرقون بين الظواهر الطبيعية وبين المعجزات ، بل كانوا حقًّا يعيشون حياتهم كلها فى إطار من المعجزات فكل ما يثير لديهم الدهشة والحيرة لا يفسرونه إلا بالتدخل المباشر للإله أو للشيطان . لذلك اقتنعوا فى يسر بأن تلك الثورة الكبرى التى يأملونها لابد لها من أن تقوم متى شاءها « يهوه » فظلوا يترقبون بوادرها فى قلق يزداد عاماً بعد عام وكانوا ينتظرون منها إصلاح أمرهم واستعادة مجدهم والانتقام لمذلتهم .

وإن هذا الأمل كان من شأنه – على نقيض ذلك – أن يدفعهم إلى مغامرات جرت عليهم أقسى البلاء والكوارث . فقد شرعوا فى هذه المغامرات فى عنف : مؤمنين بقرب اليوم المشرق الموعود وبأن إلّه السماوات لابد أن يكون لهم ناصراً إن بادروا بنصرته . والعلة الأولى للحروب العنيفة التى قامت فى القرنين الأول والثانى المسيحيين . والتى قضت على العدد العديد من اليهود وختمت مأساة أمتهم تلك العلة هى اقتناعهم بأن العالم الدنيوى على وشك الفناء ، وبأن العهد الذى قطعه رمل « يهوه » على أنفسهم فى قديم الأزمان سوف يوفى به عاجلا .

وفى إقليم الجليل – وهو الجزء الشمالى من فلسطين حيث ولد عيسى – لم تشارك غالبية الشعب من السذج البسطاء فى حياة اليهود الجديدة إلا إبان عهد المكابيين ولم تختلط كثيراً بالطبقات العليا من الكهان . أما « الكتبة » ، فلم يخل منهم الإقليم تماماً ، إلا أنهم لم يبلغوا فيه من الانتشار ما بلغوه فى القدس أو فى

الأقاليم الوسطى من فلسطين وكذلك لم يصلوا فيه إلى تلك المرتبة الرفيعة من الشهرة والنفوذ التى كان يعتدّ بها غيرهم من أساتذة المدارس اليهودية . وكان المثل الشائع يقول : إن أهل الجليل يتميزون بالعناد وصلابة الرأى . ولعل مرجع ذلك أن جبالهم كانت فى أول عهد الاستعمار اليونانى ملجأ لعصابات من الثوار القوميين ذوى البأس الشديد والمثابرة فى مقاومتهم الرومان . وكان الناس يسخرون أيضاً من لهجتهم الريفية فى الحديث ، إلا أنهم كانوا قد احتفظوا ، فيما يبدو ، بنوع من التقوى التلقائية المتحمسة فى عمق عميق يدل على قوة الحيوية الدينية ، ولا تقيده دقة المراسيم والطقوس التى اختص بها الفريسيون فى ريائهم الدينى .

إذن ، فقد ولد عيسى ونشأ فى بلد يهتم معظم الناس فيه بالمسائل الدينية أولا . وخرج من بيئة شعبية يعين أفرادها على الأمل الساذج ترقبهم القلق لتلك المعجزة الباهرة التى سوف يثاب بها اليهود على تقواهم ، والتى سوف تجعلهم ملوكاً فى الأرض ولكن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة فى أمله ، بل يجدهم على حذر من المشاكل التى قد تترتب عليه فيما يتعلق بصلاتهم بالمستعمر الأجنبى ؛ بل نستطيع القول بأن إطارات العلماء التى كانت تسوس الشعب لم ترحب كثيراً بأى حركة نابعة من أعماق الجماهير وقد أكد أحد هؤلاء العلماء أن : « لا تقوى لدى الجهلاء » .

(حـ)

فإذا وجد فى هذه البيئة إنسان يتصف بالتقوى العميقة المخلصة مع بساطة التفكير ، ولم تؤثر على حيوية روحه نظريات الكتبة ، بل نشأ متشبعاً بالقضايا

التى تشغل أهله ، والتى تطبع حياته الفكرية والدينية والخلقية بطابعها الخاص – إذا وجد هذا الإنسان ثم إذا أعطى القدرة الخارقة على أن يركز فى نفسه كل شتات الأفكار السارية فى الهواء الذى يتنسمه ، على أن يعيد تشكيلها من جديد فى تأملاته (كدأب الملهمين) فلا غرابة فى أن نراه يقوم بترجمة عقيدته من عالم الفكر إلى دنيا العمل[1] . ولم يكن للأنبياء من إقليم الجليل فى ذلك العصر سوى التبشير فى أساليب تتفاوت أصالة وابتكاراً – بقرب تحقيق الآمال . ويبدو ، فى الواقع أن هذا الوضع كان مبدأ لقيام عيسى بالدعوة .

وإننا لنفتقر إلى الوثائق التى تسمح بالنفاذ فى تفصيل ظروف تكوينه الفكرى ، وفى حقيقة الأسباب التى دفعته إلى هذا الاتجاه . ولكننا لا نؤمن فى كلا المجالين بجدوى البحث عن علل وشروح بالغة التعقيد .

إن سائر أناجيلنا تشير إلى رابطة معينة بين بدء حياته العامة ، وبين دعوة نبى آخر كان يحثّ على التوبة ، ويقول بقرب اليوم الموعود ، والأناجيل تؤكد هذه الرابطة صراحة ، وإن لم تفصلها فى وضوح . والنبى المذكور هو يوحنا المعمدان . ولربما عرفه عيسى ، واتصل به ، وامتثل قدوته عندما تملكت أقطار نفسه تلك الحماسة القاهرة التى سرت فى أعماقه حتى سيطرت على إرادته ، واندفع يبشر بدعوته لما جاء النبأ بأن هيرودوس أمر بسجن يوحنا ، وذلك حتى لا يخلو ملكوت الله من نبى .

وخلاصة القول أن عيسى بدعوته إنما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بنى إسرائيل التى انقطعت بعد العودة من المنفى والتى حاول أن يصل حلقاتها – من

---

(١) هذا ما يقوله المؤلف المسيحى ، أما نحن المسلمين فإننا نؤمن بأن عيسى عليه السلام : عبد الله ورسوله .

قبله – أنبياء آخرون منهم المعمدان . فقيامه بالدعوى – مهما بدا اول الأمر أصيلا مبتكراً – ليس فى الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل .

وهو يحل لنا الشك فى أمر معرفته منذ البداية للهدف الذى سعى إليه بالتحديد ، وتقديره لما مثله من دعوة . لقد كان يختلف عن المعمدان فى أسلوب التبشير ، إذ تخلى تماماً عن حياة الزهد وعنف الخطابة ، ولكنه لم يخرج عن المبادئ الأساسية التى كان يفسرها يوحنا :

« مملكة الله وشيكة ترقبوا الانقلاب العظيم الذى سوف يطهر العالم من الظلم والشر ، توبوا إن أردتم أن تحتلوا مكاناً بين صفوف المختارين » .

فما الدافع إلى دعوته هذه ؟ ألأنه أحس بقوة خفية تدفعه إليها ؟ ألأنه أحس بالرب فى أعماق صدره ، كما أحس به سائر الأنبياء اليهود من قبل ؟ وما معنى كلامه ؟ ثم كيف كان يتصور مملكة الله وساعتها ؟ إننا لسنا على علم بشىء من ذلك ، فالنصوص التى نستطيع الاعتماد عليها تعود كلها إلى عصر تغيرت خلاله فى أذهان المسيحيين ملامح مملكة الله ، بعد أن تأخرت عنهم ساعتها . غالب الأمر أنه كان يتصور تلك المملكة على النمط الذى تحدث الناس به من حوله[1] : مثال ذلك حلول عهد الفرج المادى بالنسبة إلى إسرائيل والإشراق المبين لبركة « يهوه » فى صورة لم يحددها خيال العامة قط تحديداً واضحاً . ولعل عيسى كذلك لم يتبين تلك الصورة ملموسة الملامح وما يدرينا . . لعله بدأ دعوته بالإشارة إلى عنف يوم البعث ، وإلى تلك الحرب الهائلة التى لم يكن الرأى الشائع يشك فى أنها سوف تطحن الأرض عند مجىء المسيح المرتقب .

(١) نعود فنقول : إننا كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام إنما كان يتلقى الوحى من الله سبحانه الذى اختاره للنبوة والرسالة .

وأناجيلنا تحمل بعض آثار هذه العقيدة وإن كانت أغلب الدلائل عليها قد انمحت أوكادت – ولا عجب – من مثل تلك النصوص التى أريد بها أولا إثبات أن المنقذ المنتظر هو نفسه عيسى . . مثال الحلم والسلام . .

وهل ظنّ عيسى أنه هو نفسه المسيح المنتظر؟ لقد شك الناس فى ذلك وما زالوا يشكون ، مستندين إلى أدلة قوية : فهو لم يصف نفسه قط بأنه المسيح (وهى كلمة تعادل كلمة « كريستوس اليونانية ») . والبحث الدقيق فى أصل النصوص الإنجيلية التى تظهر فيها هذه الكلمة يؤكد أنها لا تنتمى بصلة إلى المنبعين الأساسيين للأناجيل وهما : مجموعة الحكم المسماة بـ « اللوجيا » ، ثم إنجيل مرقس . وأكثر النصوص صراحة فى نسبة صفة المسيح إلى عيسى هى أقلها صموداً أمام النقد . ونضرب على ذلك مثلا بالتصريح المعروف الذى يُروى أنه أدلى به أمام الكاهن قيافا (مرقس : ٦١/١٤) ، وهو نص لا يعتمد على سند ما ، ويغلب على الظن أنه لا يتجاوب مع واقع التاريخ .

بيد أن العصر الذى تم فيه تدوين الأناجيل على صورتها التى وصلت بها إلينا ، هذا العصر قد فرض على العقيدة الخاصة ببعث عيسى – تلك التى أصبحت الأساس الأول للمسيحية – أن تبرز للناس فى إطار قوى ، مدعمة بأحاديث عيسى نفسه ، ولكن الفقهاء ما زالوا يميزون فى مدارج اليقين التاريخى بين « كلمة الإنجيل » ، وبين « كلمة عيسى » .

والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين ، هى : أن عيسى لم يدَّع قط أنه هو المسيح المنتظر ، (ولم يقل عن نفسه إنه « ابن الله » ، وذلك تعبير لم يكن فى الواقع يمثل – بالنسبة إلى اليهود – سوى خطأ لغوى فاحش ، وضرب من ضروب السفه فى الدين . كذلك لا يسمح لنا أى نص من نصوص الأناجيل بإطلاق

تعبير « ابن الله » على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ فى استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، إنها اللغة التى استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع ، وقد وجدا فيها معانى عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليهما[1] .

ولو أراد أن يتخذ لقباً لا تخذ لقب « ابن داود » المعروف بين بنى إسرائيل ، والذى كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر ولكنه لم يفعل . وهو لم يتخذ كذلك اللقب الذى يبدو أن أناجيلنا ترى فيه أخص خصائص شخصيته ورسالته ألا وهو : « ابن الإنسان » . أو على الأقل لم يستخدمه فى معنى « المنقذ المنتظر » ، فاليهود فى هذا العصر كانوا يجهلون هذا المعنى لتعبير « ابن الانسان » ، وإن كان النص المشهور من كتاب دانيال يقول (٧/١٣ - ١٤) :

« كنت أتأمل فى رؤى الليل فإذا بى أرى ، قادمة على سحب السماء ، صورة كصورة ابن الانسان » .

لم يكن هذا النص قد استخدمه كهنة اليهود بعد فى تصوير مجىء المسيح المنتظر ، ولم يدخل معابدهم بهذا المعنى إلا فى عصر متأخر تحت تأثير المسيحية التى أذاعته .

ولقد اختلط الأمر فى فترة من الفترات على بعض المؤمنين الذين لم يكونوا

---

(١) يمكن أن يعتبر اليهودى نفسه « عبداً ليهوه » ، لا « ابناً ليهوه » . ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » ، وتقدم للناس بهذه الصفة . والكلمة العبرية « عبد » كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعنى « خادماً » و « طفلا » على حد سواء . وتطور كلمة « طفل » إلى كلمة « ابن » ليس بالأمر العسير . ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكرى اليونانى .

(المؤلف)

على معرفة كبيرة باللغة الآرامية ، إذ إن تعبير « ابن الانسان » فى هذه اللغة يعنى فقط : « إنساناً » أو « رجلاً » ، فتهيأ لهؤلاء المؤمنين أن هذا التعبير الذى يلقونه أيضاً فى مجموعة الحكم المعروفة بـ « اللوجيا » لابد أن يحتوى على سر عميق . وقد ربطوا بينه وبين النص المماثل من كتاب دانيال – وهو النص الذى لم يفهموه أيضاً – فقرروا : أن « ابن الإنسان » مرادف مسيحى خاص لكلمة : « مسيح » . وتحليل النصوص يؤكد خطأ الذين ذهبوا هذا المذهب فى تأويل التعبير المذكور ، بل أن أغلب الفقرات التى يظهر فيها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محررى هذه الأناجيل ، لا عن عيسى .

أما تلك التى يرجح أنها مبنية على حديث صحيح له . فلا تعدو الأربع أو الخمس [1] ، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساساً فى ترجمتها للنص الأصلى ، ويجب إبدال تعبير « ابن الإنسان » فيها بكلمة « إنسان » مثال ذلك الفقرتين التاليتين :

« ابن آوى يلجأ إلى جحره . . الإنسان لا يجد موضعاً يريح فيه رأسه » .

« وإذا ذكر أحدٌ الإنسان بسوء ، فسوف يغفر له . أما من تحدث بسوء عن الروح القدس فلن يغفر له فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة » .

فمن المؤكد إذن أن الروايات الأصيلة لم تجهر صراحة بأن عيسى قد أعلن نفسه مسيحاً . وإننا لنجد نفس الشك تجاه ما يسمى بـ « سر البعث » ، أى تلك الوصية التى يروى إنجيل مرقس أن عيسى أوصى بها تلاميذه فى مناسبات

---

(١) وهى : متى ٨ / ٢٠ (لوقا ٩ / ٥٠) ، و١١ – ١٩ (لوقا ٧ – ٣٤) ، و١٢ – ٣٢ (لوقا ١٢ – ١٠) ، و٩ – ٦ (لوقا ٥ – ٣٤ ومرقس ٢ / ١٠) و١٢ / ٨ (لوقا ٦ – ٣ ومرقس ٢ – ٢٨) .

مختلفة مع كثير من التشدد والإلحاح : بألا يفشوا شيئا مما قد يتخيلونه أو يكشف لهم عنه من حقيقة مكانته . فما هو الهدف الذى كان يبغيه من إخفاء حقيقة شخصيته والتكتم على رسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه دعوته بحاجة ملحة إلى إعلان سرهما لتحقيق مغزاها ؟

ومن ناحية أخرى فإن المؤرخ يواجه مشكلة شائكة إذا ما أراد إثبات أن فلاحاً من إقليم الجليل قد طور المثل الأعلى للبطل الذى تعلقت به آمال الشعب حتى أصبح الرسول الإلهى المرتقب يُصور على شاكلة الشهيد المتواضع المستسلم ، بعد أن كان فى خيال الناس ملكاً جباراً منتصراً . وحاول بعض الفقهاء أن يتغلبوا على هذه العقبات وهذا التعارض ، فتقدموا باعتبارات مختلفة ترمى إلى إثبات القول بأن عيسى ، وإن لم يعلن عن نفسه أنه هو المسيح المنتظر ، قد ظن ذلك وآمن به ، ولم ينه تلاميذه عن ظنه والإيمان به ، وصُلب لأن بيلاطس ظن ذلك أيضاً . ولم ينهه عيسى عن ظنه ، ولو لم يؤمن الجميع بالأمر لما قُدِّر للحواريين أن يقتنعوا ببعث المصلوب من بين الأموات .

وما زال من الطبيعى أن نعجب من عدم توضيح عيسى لهذه المسألة الأساسية . ومازال فى الإمكان أن ننظر إلى التصريحات الغامضة أو الإشارات التى تنسبها إليه النصوص ، على أنها من صنع المحررين ، لا تعترف بها الروايات الأصلية ، كما يمكننا القول بأن الحاكم الرومانى لم يحتج إلى تصريح عيسى بأنه المسيح المرتقب حتى يسعى إلى التخلص من رجل فوضوى يبشر بقرب حلول مملكة الله ، أى بقرب نهاية السيطرة الرومانية .

وأخيراً لعلنا لا نغرق فى الظن إن قلنا : إن حب الحواريين لأستاذهم وثقتهم به كانا كفيلين بإحداث التهيؤات التى أدت إلى غرس الإيمان الأكيد ببعثه فى

نفوسهم . وقد جاء الاعتقاد بأنه أصبح « مسيحاً بإرادة الله » (على حد التعبير المنسوب إلى القديس بطرس فى « أعمال الرسل » ٢/٣٦) لتفسير معجزة بعثه .

فهناك إذن فى الواقع ، حجج لها قدر كبير من المنطق والقوة ، تدفع إلى الاعتقاد بأن عيسى قد اعتبر نفسه رسولا تحثه روح « يهوه » على إعلان قرب تحقيق الأمل الأكبر وضرورة التمهيد له ، وبأنه قد سلك مسلكا يتمشى مع هذا الإيمان . ولكنه حتى فى تلك الحالة قد نتساءل : هل كان عيسى قد آمن بأن مكانة مختارة سوف تخصص له فى « مملكة المستقبل » مكانة لابد لها من أن تلتقى وتتشابه مع مكانة المسيح نفسه ؟ وأجاب الكثير من فطاحل الفقهاء – أمثال لوازى – بالإيجاب عن هذا السؤال . . ومن العسير أن نأتى بالبراهين الأكيدة لهدم رأيهم ، ولكنه من العسير على حد سواء أن نسايرهم فى هذا الرأى دون تحفظ .

فالوصول إلى اليقين فى مثل هذه الحال أمر بعيد المنال .